الخليلي: اللغة العربية ليست ملكا للعرب وحدهم

"حين تمتحن أمة بسرقة لسانها، تضيع، وتمسخ شخصيتها القومية".. استنتاج خلصت إليه الكاتبة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطىء) بعد أن تفطنت إلى أن الاستعمار الأجنبي الذي غرز مخالبه في جسد الأمة العربية والإسلامية طيلة قرن من الزمن وما يزيد، فاستنزف خيراتها، وعاث فسادا في عيون آدابها وعلومها، وشوه وجه الأرض.. إنما أراد بذلك طمس مقومات الهوية حيث اللغة أحد أهم تلك المقومات، ولذلك هبت رسائل الاستنهاض والدعوة للالتفاف حول لغة البيان، والحجة على الإسلام لمنع الأذى عنها.

وكان لابد حينئذ من عودة الأصوات إلى منابر الحوار للتنبيه إلى المخاطر التي تتهدد العربية، والدعوة مجددا إلى اليقظة وإصلاح ما تم إفساده، بالرجوع إلى القرآن الكريم وإلى أمهات الكتب.. وكانت إحدى تلك الدعوات على المستوى الوطني محاضرة بعنوان" اللغة العربية وضمير الأمة" لسماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي المفتي العام للسلطنة، والتي نظمها مؤخرا مركز السلطان قابوس للثقافة الإسلامية.

* إعداد: مركز السلطان قابوس للثقافة الإسلامية

قدم للمحاضرة الباحث محمد بن سعيد الحجري الذي قال: إن اللغة العربية تجاوزت بالإسلام الأطر العربية إلى أن تكون لغة الإسلام علما وفكرا وحضارة، بل وكانت لغة العلم والمعرفة العالمية ردحا من الزمن، وقد أدرك علماء الأمة منذ عصر التدوين وإلى الآن، أن النهوض اللغوي مقدمةٌ حتميةٌ للنهوض الفكري والعلمي والحضاري العام، والعربية تواجه اليوم تحديات جمة تعدت محيطها العالمي إلى مناطق نفوذها ووجودها الأساسية في العالم العربي ذاته..

وأضاف الحجري: إن العربية بكل قوانينها ونظمها نحوا وصرفا ودلالة وأدبا وبيانا وبلاغة، بكل ما تحويه نصوصها من طاقة تعبيرية، ونفوذ وجداني، تحتاج منا وقفة مطولة لتمتينها وتثبيت الإيمان بها في ضمير الأمة..

وبعد ذلك ألقى سماحة مفتي عام السلطنة محاضرته التي افتتحها بقوله: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلمه البيان، وشرف اللسان العربي على كل لسان، إذ جعله وعاء ذكره الحكيم وبيان صراطه المستقيم ، أنزل به كتابه وجعله معجزا بيانه ساطعا برهانه شامخا بنيانه تحدى به الأمم فعجزت أن تأتي بمثله أو أن تأتي بسورة من مثله، وأشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدا عبده ورسوله أرسله الله بأحسن الألسن، وأبلغ البيان، وأقوى البرهان، فبلّغ رسالة ربه، وأدى أمانته، وبين للناس الطريقة، وكشف لهم معالم الحقيقة.. صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى تابعيهم بإحسان إلى يوم الدين..

وتابع سماحته يقول: أحييكم جميعا بهذه التحية الطيبة المباركة، وأشكر الله سبحانه وتعالى الذي جمعنا هنا تحت لواء اللغة العربية.. اللغة التي تجمع الأمم لأنها اللسان الذي خاطب الله سبحانه وتعالى به عباده ، وأمرهم أن يخاطبوه به، فاللغة العربية ليست ملكا للعرب وحدهم، إذ هي ليست لغة قومية بعد أن اختارها الله سبحانه وتعالى لأن تكون وعاء لكلامه المنزل للهداية والإعجاز، فقد كانت لغة قومية قبل ذلك عندما كانت خاصة للعرب وحدهم، ولكن بعد أن شرفها الله سبحانه وتعالى، ورفع من قدرها إذ أنزل بها هذا الكتاب المبين، وشرفها بأن تكون وعاء هذا الذكر الحكيم، وأن تكون بيان هذا الصراط المستقيم، لم تعد لغة العرب وحدهم وإنما أصبحت لغة الأمة المسلمة بأسرها لا فرق في ذلك بين عربي وأعجمي، ولا فرق في ذلك بين أسود وأبيض، لأن هذه اللغة هي التي خاطب الله سبحانه وتعالى بها عباده جميعا إذ انزل بها هذا الكتاب العزيز الذي أخبر أنه ذكر للعالمين، وفرض على عباده أن يخاطبوه بها عندما يقف الكل بين يديه، ويقول بلسان عربي مبين (إياك نعبد وإياك نستعين) فإذن هي لغة التخاطب بين العباد وبين ربهم، معنى هذا أنها رباط كما أن العقيدة رباط، فهي رباط بين الناطقين بها كما أن العقيدة رباط بين المؤمنين بها، ولا ريب أن لغة كل أمة من الأمم إنما هي وعاء حضاري، إذ اللغة هي التي تجمع شتيت معلوماتهم، وتؤلف بين علاقاتهم، وتصل في ما بينهم، ولذلك كانت اللغة جسرا تعبر عليه الثقافة.

وقد أدرك المستعمرون ذلك فرسخوا لغاتهم في أي مكان ينزلون به إذ المستعمر أيا كان إنما يفرض لغته على من تسلط عليهم، فالإنجليز فرضوا لغتهم في أي بقعة استعمروها، وجعلوها لغة الثقافة ولغة العمل ولغة الفكر، وكذلك الفرنسيون والروس وغيرهم .. فكل أمة مستعمرة إنما تفرض لغتها، وقد قلت أكثر من مرة بأنه من العار على المسلم أيا كان أن يحسن لغة المستعمر الذي استعبده وأذله ولا يحسن اللغة التي شرفه الله سبحانه وتعالى بأن خاطبه بها ليحرره من العبودية لغير الله سبحانه وتعالى، فإذن، العناية باللغة العربية دين في رقاب الأمة، ونحن ندرك أن السلف أدرك هذه النقطة واهتم بها أيما اهتمام، فنحن نرى كيف جمعت هذه اللغة بين العرب والعجم، بل كان العجم أكثر عناية بها ومفاخرة بها وتضحية من أجلها .. خرجوا إلى أصقاع الأرض يبحثون عن أي شيء يمكن أن يظفروا بها من اللغة العربية ، لربما سافر أحدهم من أجل البحث عن بيت من الشعر، أو البحث عن شاهد معين في ما يتعلق باللغة العربية، ولربما قطع المسافات من أجل التأكد من معلومة لم يكن متأكدا منها من قبل .. كل ذلك من أجل العناية بالعربية، وقد كانت هذه اللغة معقد تفاخرهم ومناط تنافرهم، فهم يحرصون على أن يظهروا بأنهم متمكنون منها، وهم يتفاخرون بهذا، وقد وقع التنافر والتفاخر في ذلك بين سيبويه والكسائي إمامي العربية وهما من العجم، واشتد تنافرهما في قضية معينة كانت سببا لحتف سيبويه بسبب أن السلطة وقفت بجانب الكسائي، وبعثت الناس على تأييده، وإن كانوا غير مؤمنين بما يقولون به ، ما أدى بسيبويه إلى أن يحس بضيم عظيم من هذه الناحية وكان ذلك سببا لحتفه ،

■ حضور كبير شهدته المحاضرة

فإذن اللغة العربية كانت معقد عناية العجم، كما أنها كانت شرفا للعرب عنوا أيما عناية بها وكانوا يفاخرون بهذا، حتى أن الزمخشري الأعجمي في فاتحة كتابه "المفصل" قال "الله أحمد على أن شرفني بأن جعلني من علماء العربية".. نعم إنه لشرف وأي شرف لأن هذه اللغة اختارها الله سبحانه وتعالى لأن تكون وعاء لكلامه العظيم الذي أنزله ليتحدى به الأمم جميعا، وليبين للناس أنه الحق المنزل من عند الله سبحانه وتعالى عندما تتقاصر عباراتهم جميعا عن أن تضاهي عبارته، فقد تُحُدي العرب، وعندما نزل القرآن على قلب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت اللغة العربية بلغت أوجها الشامخة، والعرب كانوا ممسكين بناصيتها لأنهم روضوها أي ترويض فانقادت لهم في شعرهم ونثرهم، وكانوا يحضرون المساجلات والمسابقات في الأسواق المخصصة لذلك، وقد وصلت اللغة في ذلك الوقت إلى ما وصلت إليه بعدما صقلتها الألسن العربية تمهيدا لأن تكون وعاء لكتاب الله سبحانه وتعالى، فكان العرب على أي حال عندما نزل القرآن الكريم على قلب النبي ـ عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والتسليم ـ بلغوا من البلاغة ما تتقاصر عنه الهمم في جميع العصور السابقة واللاحقة، إذ كانت الجزيرة العربية تزخر بهذه الأفواج من الخطباء والشعراء الذين كانوا يتسابقون في مضمار البيان نضمه ونثره، ولا يشق لهم في ذلك غبار وكانوا يتفننون أيما تفنن فتحدى أن يأتوا بمثل هذا القرآن فتقاصرت هممهم، وعجزوا عن المجادلة باللسان إلى المجادلة بالسنان، وآثروا القتال على محاولة الإتيان بمثل القرآن لأنهم أدركوا أنهم لو حاولوا أن يأتوا بمثله لما كان منهم إلا الاسفاف الذي يربأون بأنفسهم عن أن ينزلوا إلى حضيضه، فأمسكوا وتحدوا أن يأتوا بعشر سور من مثله فعجزوا، وتحدوا أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا وقد أرخي لهم العنان، ووسع لهم الميدان، بحيث يمكنهم أن يستعينوا بأي أحد.. يمكنهم أن يستعينوا بشهدائهم عندما يدعون أنهم جاءوا بمثل القرآن، ولكنهم مع ذلك كله أمسكوا عن هذا لما يخافونه من الإسفاف لأن شياطينهم أنفسهم أدركوا هذا الأمر واستقر في وجدانهم، فقد أدركوا أنهم عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن الكريم، حتى أولئك الماردون الجبارون اعترفوا بهذه الحقيقة، كما كان ذلك من الوليد بن المغيرة وعتبة بن أبي ربيعة عندما اعترفا بهذه الحقيقة رغم أنفيهما، وتكرر هذا في عهود التاريخ قديمه وحديثه، إذ كثير من أولئك الذين يتحدون القرآن ويحاربونه ويحاربون عقيدة الإيمان اعترفوا بأن القرآن بلغ من الإعجاز ما تتقاصر دونه بلاغات البلغاء جميعا، هذا ما اعترفوا به بأنفسهم، كما كان في القرن الماضي من شبلي شبيل الذي كان أحد الذين ينشرون الإلحاد في البلاد العربية، ويروجون له، عندما اعترف بذلك نضما ونثرا، فعندما كان يقرأ مجلة "المنار" التي كان يحررها السيد محمد رشيد رضا وقد خصص فيها صفحات لذكر مناقب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجه إليه رسالة مختصرة يقول له فيها "إلى غزالي محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار، أنت تنظر إلى محمد كنبي وتجعله عظيما، وأنا أنظر إليه كرجل وأجعله أعظم، ونحن وإن كنا في الاعتقاد الديني أو المبدأ الديني على طرفي نقيض فإننا يجمع بيننا العقل الواسع والإخلاص في القول وذلك أوثق لعرى المودة بيننا"، ثم كتب تحت عنوان (الحق أولى أن يقال) هذه الأبيات:

دع من محمد في سدى قرآنه
ما قد نحاه لنخبة الغايات
اني وإن أك قد كفرت بدينه
هل أكفرن بمحكم الآيات
أو ما حوت في ناصع الألفاظ من
حكم الفؤاد عن الهوى وعظات
وشرائع لو أنهم أخذوا بها
ما قيدوا العمران بالعادات
نعم المدبر والحكيم وانه
رب الفصاحة مصطفى الكلمات
رجل الحجى رجل السياسة والدها
بطل حليف النصر في الغارات
ببلاغة القرآن قد غلب النهى
وبسيفه انحى على الهامات
من دونه الأبطال في كل الورى
من سابق أو حاضر أو آت

وهذا الأمر يتكرر باستمرار حتى أن المستشرقين ومن غير العرب أيضا عندما درسوا اللسان العربي ودرسوا القرآن المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم للهداية والإعجاز، اعترفوا بأن آية هذه الرسالة في هذه المعجزة .. في معجزة القرآن الكتاب الذي لا يمكن أن يرقى إلى بيانه أي بيان، ولا يمكن أن يأتي بمثله أحد قط، حتى أن أحد المستشرقين الفرنسيين عندما تُرجمت اثنتان وستون سورة من سور القرآن الكريم باللغة الفرنسية إلى سور فرنسية بتوصية من وزارة التعليم الفرنسية ووزارة الداخلية، كتب أحد المستشرقين تقديما في هذه الترجمة وقال في هذا التقديم: إن القرآن لا يمكن أن تفي به لغة إلا لغته الخاصة التي نزل بها، ولا يمكن أن يفي بعجائبه أسلوب إلا أسلوبه الخاص، فإنه أسلوب إلهي ولذلك أعجز البشر بسحر البيان..

نعم هم يعترفون بأن القرآن الكريم أعجز البشر بسحر البيان، فإذاً اللغة وعاء لهذا الكتاب العزيز، وقد اعترف المعترفون جميعا على اختلاف مللهم وأفكارهم وعلى اختلاف وتباين أحوالهم بأنه لا يمكن أن يرقى إلى بيانه بيان، ولا يأتي بمثله أسلوب ، وهي جديرة بأن تلقى كل عناية منه .. نعم هذه اللغة كما قلت إنما يفاخر كل مسلم بإتقانها، وهذا ما وجدناه من الذين عنوا باللغة العربية، وعنوا بفهم الإسلام في وقتنا هذا، فهم يعنون أيما عناية بأن يبرزوا في اللغة العربية ويجعلوها مفخرتهم في حديثهم وفي خطابهم للآخرين.

قبل فترة من الزمن انعقد مؤتمر في باكستان وحضرت وفود من مختلف بلاد العالم في عهد الرئيس الجنرال ضياء الحق، ودخلت الوفود عليه، فتكلم باسم الوفود الشيخ حمدي يوسف الذي كان إبان ذلك مفتي يوغسلافيا، وهو رجل بوسني معنى ذلك أنه رجل أعجمي، وهو يتقن اللغة الأنجليزية، وبإمكانه أن يكلم بها ضياء الحق، ولكن بدلا من أن يكلمه باللغة الأنجليزية كلمه باللغة العربية، فلما قيل له "كان بإمكانك أن تكلمه من دون أن يترجم له أحد كلامك فلماذا عدلت عن اللغة التي يفهمها إلى اللغة التي لا يفهمها وكلمته بالغة العربية ؟ قال: وهل يليق بمسلم يمكنه أن يتحدث بالعربية أن يتحدث بغيرها ؟؟

هذا الاعتزاز باللغة العربية إنما هو دليل على الاعتزاز بعقيدة الإسلام، وعلى الاعتزاز بالانتماء الى الإسلام والرغبة في أن يعيش صاحب هذا الاعتزاز عيشة تكون امتدادا لعيشة أولئك الذين اجترأوا من معين هذه اللغة

اللغة جسر تعبر عليه الثقافة

على الأمة أن تتحرر من التبعية العمياء لغيرها

وتشبعوا بها وأروتهم وشغلتهم عن كل اللغات، وشغلهم أدبهم عن كل أدب .. نعم هذه هي اللغة العربية التي يفاخر بها المفاخرون بسبب أن الله سبحانه وتعالى شرفها بأن تكون وعاء لكتابه العزيز، ولذلك كانت العربية مدينة للقرآن كما أن الإسلام مدين للقرآن الكريم إذ لولا القرآن لما بقي الإسلام ولولا القرآن لماتت العربية كما ماتت اللغات القديمة الأخرى، وإنما العناية بالقرآن هو الذي شغل الناس عن العربية، وكان أبناء العجم يفاخرون بأنهم يؤلفون بها، وأنهم يبرزون في التعبير بها، وقد وصلوا إلى ما وصلوا إليه، وفاقت كتب العجم كتب العرب من هذه الناحية، فلو جئنا إلى كتاب سيبويه في النحو نجد أنه أصل الكتب التي ألفت فيما بعد ، وكذلك إذا جئنا إلى الكتب الأخرى التي ألفها أبناء العجم في شتى الفنون المتعلقة بالعربية، ولو جئنا إلى كتابي الجرجاني "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" لوجدنا أن هذين الكتابين يفوقان كل كتاب ألف في مجال البلاغة، فمعنى ذلك أن العجم برزوا في تأليفهم بهذه اللغة.

قبل فترة وجيزة حدثني أحد من عندنا أنه حضر مؤتمرا في إحدى الدول التي كانت تحت لواء الاتحاد السوفياتي سابقا، وحضرت الوفود من كل مكان ومن بينها وفود العرب، وحضر رجل من ندوة العلماء بالهند فتكلم باللسان العربي، وبزت بلاغته بلغاء العرب الذين حضروا، معنى ذلك أن اللغة العربية هي لغة الجميع، وقد يسرها الله تبارك وتعالى كما يسر القرآن للذكر، ونجد من شواهد هذا أنه عندما أذن القرن الرابع عشر بالانتهاء وأقبل القرن الخامس عشر للهجرة، نظم القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية مسابقة شعرية في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، فاشترك في هذه المسابقة ألف ومائتان من الشعراء، ولم يكن الفائز الأول في حلبتها عربيا وإنما كان أفريقيا من السينغال، والشاعر عبدالله با الذي افتتح قصيدته بقوله:

هجرت بطاح مكة والهضابا
وودعت المنازل والرحابا
ومن عجب تسيء إليك أرض
نشأت فما أسأت بها شبابا

فما هذا السبق في مجال العربية من قبل غير أبناء العرب إلا دليل على أن هذه اللغة يسرها الله سبحانه وتعالى كما يسر القرآن للذكر، ولذلك كان على الأمة جميعا أن تعنى باللغة العربية.. الأمة جميعا مطالبة بأن تكون على فهم بمعجزة القرآن الكريم، ولا ريب ان الإدراك والفهم لإعجاز القرآن من حيث البيان إنما يتوقف على فهم هذه اللغة .. من لم يدرك اللغة العربية أنى له أن يفهم معجزة القرآن .. لا ريب أن للقرآن الكريم حلاوة وعذوبة حتى الذين لا يفهمون العربية قد يدركون بوجدانهم هذه العذوبة، ولكنهم لا يستطيعون أن يصلوا إلى تفاصيل هذا الأمر، واستكشاف أسراره حتى يتبين لهم كيف أن هذا القرآن قاد العرب من ألسنتهم، وحولهم من وضع إلى وضع، لأن العرب كانوا في ذلك الوقت مع ضلال ألبابهم وعمى بصائرهم وصلوا في البلاغة إلى شأو رفيع بحيث كانت لغتهم أرقى لغات العالم جميعا، وكان أسلوبهم أقوى الأساليب، ولكن مع هذا كله ظهر القرآن ببيانه.. هم كانوا يسلسون قياده لألسنتهم فاقتادهم القرآن من هذا اللسان الذي كان يمتلك ألبابهم.. جاءهم بهذا البيان المعجز وحير ألبابهم، ولا ريب أن دراسة ذلك تتوقف على معرفة اللغة العربية بفنونها جميعا، ولايمكن أن يقتحم أسوار هذا الأمر دعي ويتحدث فيه بجهل ..لابد أن يكون الذي يتحدث في هذا الجانب ملما بفنون اللغة العربية من نحو وتصريف وبلاغة حتى يفهم الإنسان كيف جاء هذا القرآن الكريم بهذا الأسلوب الذي حير الألباب.

لاريب أن القرآن الكريم وفي حقيقته معجز .. اللغة العربية كما قلنا لغة واسعة الأساليب، تفنن الناس فيها وجاءوا في أدبهم الشعري والنثري بالعجب العجاب، ولكن القرآن الكريم لا يمكن أن يجارى من أي أحد كان من الناس .. القرآن الكريم جاءت كلماته مترتبة متناسقة كل واحدة منها تأخذ بحجزة أختها، فكل كلمة من الكلمات حلت محلها، وليس هذا الإعجاز من حيث مفردات الكلمات فحسب، بل حتى من حيث تصفيف الحروف .. وقد جاء تصفيف الحروف متناسقا مع الوجوه التي يتحدث عنها القرآن الكريم، فعندما يتحدث عن جانب فيه شيء من

■ سماحته خلال القائه المحاضرة

العناية باللغة العربية دَين في رقاب الأمة

الاعتزاز باللغة العربية إنما هو دليل على الاعتزاز بعقيدة الإسلام

■ جانب اخر من الحضور